نحو أدب فلسطيني جديد

سمر عبد الجابر*

فلسطين فراغ في القلب

I

في طفولتي، كان أبي يقرأ لي القصص والشعر بشكل يومي، وقد ترك ذلك أثراً سحرياً في نفسي، لعل له الفضل الأكبر في تكوّن حبّي للأدب منذ ذاك الوقت. كنت كذلك أذهب برفقته إلى حفلات الزجل في جبل لبنان وجنوبه في التسعينيات، وكانت تلك الحفلات تنقلني إلى عالمٍ موازٍ تملأه الموسيقى والكلمات. بدأتُ أولى محاولات الكتابة خلال تلك الفترة، ولم أكن أعرف أن الكتابة ستصبح هاجساً بالنسبة إليّ، وجزءاً مهماً من حياتي فيما بعد.

أرى أن الطفولة هي الأساس في تكويننا كبشر، وهي من العوامل الأهمّ التي تحدد مَن سنكون فيما بعد كأشخاص.. ولا أعتقد أني كنت لأكمل في الكتابة لو لم أولد في بيت فيه مكتبة، ولو لم يفتح لي أبي باب الشعر منذ صغري، ولو لم يهتم بعضٌ من أساتذتي بما لمحوه من احتمال موهبة ما بين دفّتي دفتر الإنشاء.

أكثر من أثّر فيّ بعد ذلك هو أستاذي الشاعر أنور الزين الذي كان له الدور الأبرز في انفتاحي على عالم شعري أوسع.

تبدو الطفولة لي الآن قريبة وبعيدة في آن معاً... تسكن رأسي صورٌ منذ ذاك الوقت، ومقاطع قصيرة لأحداث أذكر بعضها كما لو أنه حدث أمس. ولا شك في أن بعضاً من هذه الأحداث يترك أثراً واضحاً في النصوص التي أكتبها.. ليس في شكل النص، وإنما أكثر في مضمونه. تحضر الطفولة كموضوع، كمرحلة لا يمكن التحرر منها مهما يمض من الوقت.

أمّا بالنسبة إلى شكل النص أو أسلوب الكتابة، فأعتقد أنهما يتحرران من قراءات الطفولة في مراحل لاحقة من العمر، إذ يتأثران أكثر بالتجارب الكتابية والقراءات التي تأتي فيما بعد.

* شاعرة فلسطينية من مواليد لبنان ١٩٨٥. صدر لها: "وفي رواية أُخرى" ٢٠٠٩.

II

لا أذكر متى كانت أول مرة وعيت فيها إلى أني فلسطينية. كان ذلك ربما حين كنت في الخامسة من عمري، حين لاحظت أني أتكلم بلهجة مختلفة عن اللهجة المشتركة التي يتكلمها تلاميذ الصف الأول في مدرستي الواقعة في جبل لبنان.

ولعلّ فلسطينيتي أصبحت راسخة أكثر حين بدأ جدّي بعد ذاك الوقت بقليل يحكي لي قصصاً عاشها في حيفا حتى سنة ١٩٤٨. كان جدي يروي القصص بتفصيلاتها كما لو أنها لم تحدث منذ أعوام طويلة. كنت كثيراً ما أتخيل أن ذاكرة جدي توقفت عن تسجيل الأحداث منذ ذاك اليوم الذي غادر فيه فلسطين في سنة ١٩٤٨ في قارب متّجه إلى صور في الجنوب اللبناني. ذاكرة جدي كانت مكرسة لتحتفظ بذكريات حياته من فلسطين، وكانت لا تبالي بأي أحداث أتت بعد ذلك..

لم أشعر يوماً بأن فلسطينيتي تقيّدني، لأنها ببساطة ليست خارجة عني.. فلسطينيتي هي أنا، بقدر ما الاغتراب هو أنا. عشت في أماكن كثيرة ولم أستطع الانتماء بشكل كامل إلى أي منها، ولهذا السبب، تظهر فلسطين في نصوصي: فراغ في القلب لم يستطع مكان آخر أن يملأه.

أكتب عن فلسطين من منطلق شخصي بحت.. ذلك بأني أساساً أفضّل الكتابة الذاتية، وأؤمن بأنها الأكثر صدقاً، وأنها تعطي النصوص طابعاً خاصاً يكسر النمطية التي يمكن أن يقع فيها الكاتب إذا اتجه إلى الكتابة عن القضية من منطلق عام. وهذا لا يعني أني أنكر أهمية كل ما كُتب عن فلسطين في الأعوام التي مضت، ولا أنكر أهمية تجارب شعرية تطرقت إلى القضية من منطلق خطابي أو عام، غير أني أرى أن الوقت حان للتجديد في الكتابة عن القضية الفلسطينية.. لأن تكرار تجارب مَن سبقونا لا يفيد ولا يترك أثراً.

بشكل عام لا أحب التصنيفات، فلا أطلق على نفسي صفة "الملتزمة". لا أختار الموضوعات التي أكتب عنها، ولا أعتبر أنه يجب أن يكون ثمة "موضوع" للقصيدة أو النص. ظهور السياسة في نصوصي يأتي بشكل عفوي تماماً كما الأفكار والتجارب الأُخرى التي أعيشها.. كل ما أمرّ به خلال يومي ينعكس في كتابتي بشكل عفوي.

III

في بداية الكتابة تأثرت بشعراء وكتّاب عرب كثر كان أبرزهم محمود درويش، وهو الذي ترك أثراً في كتابات جيل كامل. في مرحلة لاحقة، ثم اتجهت إلى قراءة قصيدة النثر المترجمة، وخصوصاً الشعر الأميركي الحديث والشعر الياباني.

من الشعر الأميركي، أحب تشارلز بوكوفسكي ودوريان لوكس وبيلي كولينز. وقد يكون المشترك بينهم أنهم يكتبون القصيدة الذاتية التي أثّرت كثيراً في فهمي وكتابتي لقصيدة النثر. أمّا الشعر الياباني، فكان اكتشافاً رائعاً بالنسبة إليّ لما فيه

من حساسية عالية تجاه الطبيعة والحياة، وبراعة في التقاط اللحظات والأحداث. اكتشفت "الهايكو"، ثم "السنريو" و"التانكا"، وقد ترك كل منها أثراً في رؤيتي وكتابتي للشعر.

منذ نحو عامين، أنشأت مدوّنة بعنوان "ثلاثيات"، وهي تهدف إلى التجريب في كتابة القصيدة اليابانية باللغة العربية، ذلك بأن القصيدة اليابانية (ولا سيما الهايكو) أصبحت نمطاً عالمياً للكتابة في معظم دول العالم.. وأرى ضرورة انعكاسه في التجارب الشعرية العربية..

وأكثر مَن أثّر فيّ من الشعراء اليابانيين، شاعر يدعى إيشيكاوا تاكوبوكو. فقد لفتني كيف يمكن لمقطع شعري قصير كُتب قبل أكثر من ١٠٠ عام أن يشبهني أكثر من أي قصيدة كُتبت في عصرنا الحالي..

ولا بد هنا من الإشارة إلى أهمية الترجمات في نقل هذه التجارب إلى العربية، وهي بلا شك تترك أثراً مهماً في التجديد في الكتابات العربية... لكن لا بدّ من الإشارة أيضاً في الوقت ذاته إلى خطورة هذا الأمر، لأن هذا التأثير قد ينعكس سلباً على اللغة العربية كلغة. ولذلك أعتقد أنه يجب أن يكون ثمة حذر في مدى التأثر بالترجمات، وأعني بذلك ضرورة ألاّ نتخلى عن قراءة الشعر العربي القديم، ذي الحقل المعجمي الواسع.

أشعر بأن قصيدة النثر تشبهني، لكني لست أبداً ضد أن تستمر تجارب كتابة شعر التفعيلة والقصيدة العامودية. لا بدّ من الحفاظ على هذه الكتابات لأنها تعطي اللغة العربية هوية خاصة.

من كتّاب قصيدة النثر العرب أحب شعر أمجد ناصر وأحمد يماني وسامر أبو هواش وهالا محمد. ومن الشعراء المترجمين أحب أيضاً فيسوافا شيمبورسكا، وفرناندو بيسوا. ومن كتّاب الروايات أحب أمين معلوف وميلان كونديرا وهاروكي موراكامي. ■